وهذه الحادثة أول ثمرة لغرس المعتصم فإنه ملك الخلافة قوماً لا حلوم لهم وليس لهم من الأخلاق ما يمنعهم مما فعلوا ولا من العصبية ما يجعل جانبهم مأموناً وأجل من ذلك أن يكون ولي العهد شريكاً في دم أبيه وهذا أيضاً أول حادث من نوعه ويعجبني ما قاله البحتري:

أكان ولي العهد أضمر غدره ... فمن عجب أن ولي العهد غادره

فلا ملك الباقي تراث الذي مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

١١ ـ المنتصر

هو محمد المنتصر بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها حبشية ولد (سنة ٢٢٢) وعقد له أبوه ولاية العهد (سنة ٢٣٥) وسنه ثلاث عشرة سنة. ولما قتل أبوه بايعه قواد الأتراك عقيب مقتله في (٤ شوال سنة ٢٤٧) (١١ ديسمبر سنة ٨٦١) واستمر خليفة إلى أن توفي يوم الأحد لخمس خلون من شهر ربيع الآخر (سنة ٢٤٨) (٧ يونية سنة ٨٦٢) فكانت مدته التي تعجلها بقتل أبيه ستة أشهر.

استوزر المنتصر أحمد بن الخصيب وكان كاتبه قبل أن يستخلف وكان مقصراً في صناعته مطعوناً عليه في عقله وكانت فيه مروءة وحدة وطيش فمن احتمله بلغ منه ما أراد وقد وصفه المسعودي بأنه كان قليل الخير كثير الشر وقد ندم المنتصر على ما فعل من تقليده الوزارة ونفيه عبيد الله بن خاقان وزير أبيه بسبب ما شاع من حدة ابن الخصيب وطيشه وذلك أنه ركب ذات يوم فتظلم إليه متظلم بقصة فأخرج رجله من الركاب فزج بها في صدر المتظلم فقتله فتحدث الناس بذلك، فقال بعض شعراء ذلك الزمان:

قل للخليفة يا ابن عم محمد ... أشكل وزيرك إنه شكال

أشكله عن ركل الرجال وإن ترد ... مالاً فعند وزيرك الأموال

الجيش:

بقتل المتوكل واستيلاء المنتصر الشاب زادت الأتراك قوة في الدولة على قوتهم لأن أيديهم امتدت إلى حياة الخلفاء فقتلوا الخليفة وساقوا الخلافة إلى خليفة فأنشبوا أظفارهم بذلك في جسم الدولة ولم يكن هناك من حيلة للتخلص منهم لما دب إلى قلوب الخلفاء من الهيبة ورعاية جانبهم ومما يدل على ذلك أن الأتراك لم يكونوا يحبون أن تكون ولاية العهد للمعتز والمؤيد ابني المتوكل فأشاروا على المنتصر بخلعهما فأحضرا دار الخلافة وطلب منهما أن يكتبا طالبين أن يخلعا من ولاية العهد لضعفهما عن ذلك فرضي المؤيد وأبى المعتز فقال له المؤيد يا جاهل تراهم قد نالوا من أبيك وهو هو ما نالوا ثم تمتنع عليهم، اخلع ويلك ولا تراجعهم. وما زال به حتى

أجاب وكتبا ما أملي عليهما في ذلك. وهذا ما كتباه «بسم اللّه الرحمٰن الرحيم إن أمير المؤمنين المتوكل على اللّه رضي اللّه عنه قلدني هذا الأمر وبايع لي وأنا صغير من غير إرادتي ومحبتي، فلما فهمت أمري علمت أني لا أقوم بما قلدني ولا أصلح لخلافة المسلمين فمن كانت بيعتي في عنقه فهو من نقضها في حل وقد حللتكم منها وأبرأتكم من أيمانكم ولا عهد لي في رقابكم ولا عقد وأنتم برآء من ذلك» ثم دخلا على المنتصر فاعترفا بما في الكتاب ثم أقبل عليهما والأتراك وقوف وقال لهما أترياني خلعتكما طمعاً في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له واللّه ما طمعت في ذلك ساعة قط وإذا لم يكن في ذلك طمع فواللّه لأن يليها بنو أبي أحب إلى من أن يليها بنو عمي ولكن هؤلاء (وأومأ إلى سائر الموالي ممن هو قائم وقاعد) ألحوا علي في خلعكما فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما فما تريائي صانعاً أقتله، فواللّه ما تفي دماؤهم كلهم بدم بعضكم، فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل علي.

فانظروا كيف كان عجز الخليفة عن أن يرد مشورة لهم تخالف ما عقده المتوكل وأكده بالأيمان والمواثيق والعهود. وقد كتب المنتصر بذلك إلى الآفاق وظهر في كتابه براعة المنشئين في ذلك الوقت وإن لم تظهر فيه براعة الأخلاق الفاضلة وحفظ العهود والمواثيق وكان الكاتب له أحمد بن الخصيب.

صفات المنتصر:

لئن كان الغضب قد حمل المنتصر على تذليل السبيل لإهراق دم أبيه فإنه كان لا يزال ذا نفس تحس فتتأثر فلم يزل يلاقي أهوال التوبيخ في يقظته ومنامه حتى أسقم ذلك بدنه وأذل نفسه. دخل عليه عبد اللّه بن عمر البازيار ذات يوم وهو يبكي وينتحب فسأله عن سبب بكائه فقال كنت نائماً فرأيت كأن المتوكل قد جاءني فقال لي ويلك يا محمد قتلتني وظلمتني وغبتني خلافتي واللّه لا تمتعت بعدي إلا أياماً يسيرة ثم مصيرك إلى النار فانتبهت وما أملك عيني ولا جزعي. فهون عليه عبد اللّه الأمر وكان كثيراً ما يقول إذا سئل عن حاله ذهبت واللّه مني الدنيا والآخرة ـ فكان الرجل يكابد نيراناً تضطرم بين جنبيه جزاء فعلته وكان يهم أن يكفر سيئته فينتقم من قتلة أبيه لولا أنه أحس بأن الذين تمكنوا من قتل أبيه لا يبعد عليهم أن يكرروا التجربة فيه فكان يفكر في تفريق جمعهم، وأثرت عنه كلمات في ذلك ولكن قوتهم كانت أكبر من أن تتأثر بتفكير ذلك الخليفة الشاب.

كان من خلق المنتصر سعة الاحتمال وكثرة المعروف والرغبة في الخير والسخاء والعفة وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق وحسن المعاشرة بما لم يسبقه خليفة إلى مثله ومما حببه إلى الناس إزالته عن آل أبي طالب ما كان قد أوحشهم فتقدم بالكف عنهم وترك البحث عن أخبارهم

وألا يمنع أحد زيارة قبر الحسين رضي اللّه عنه ولا قبر غيره من آل أبي طالب وأطلق أوقاف الطالبين وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم ومما يؤثر من قوله (إن لذة العفو أعذب من لذة التشفي وأقبح أفعال المقتدر الانتقام) وقد أظهر الانصاف في الرعية فمالت إليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة هيبتها له.

وفاة المنتصر:

قال الطبري: لم أزل أسمع الناس حين أفضت إليه الخلافة من لدن ولي إلى أن مات يقولون إنما مدة حياته ستة أشهر «مدة شيرويه بن كسرى» قاتل أبيه مستفيضاً ذلك على ألسن العامة والخاصة وكذلك كان فقد أصابته العلة التي قضت عليه يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الأول (سنة ٢٤٨) ومات مع العصر من يوم الأحد لخمس ليال خلون من شهر ربيع الآخر ويقال إن تلك العلة كانت الذبحة في حلقه وبعضهم يقول كانت ورماً خبيثاً في معدته ويقال إنه سم سمه الطبيب في مبضع واللّه أعلم أي ذلك كان.

١٢ ـ المستعين

هو أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد صقلية اسمها مخارق ولد (سنة ٢٢٠) وبويع بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه المنتصر وهو خامس ربيع الآخر (سنة ٢٤٨) (٧ يونيه سنة ٨٦٢) ولم يزل خليفة إلى أن خلع يوم الجمعة (٤ محرم سنة ٢٥٢) (١٥ يناير سنة ٨٦٦) فكانت مدته ثلاث سنوات وثمانية أشهر و(٢٨ يوماً).

كيف انتخب:

اجتمع الموالي وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير وأتامش ومن معهم فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بما رضي به من سمينا، فأجمع رأي الثلاثة على ألا يولوا أحداً من أولاد المتوكل لئلا يغتالهم بدم أبيه كما أنهم يريدون إخراجها عن أولاد المعتصم مولاهم فاقترح عليهم تولية أحمد بن المعتصم فقال لهم محمد بن موسى بن شاكر المنجم أتولون رجلاً عنده أنه أحق الناس بالخلافة قبل المتوكل وأنكم دفعتموها عنه وأنه أحق بالأمر من المتوكل والمنتصر فبأي عين يراكم وأي قدر يكون لكم عنده؟ ولكن أطيعوا إنساناً يعرف لكم ذلك. فكانت هذه الكلمات مما وافق هواهم جميعاً إلا بغا الكبير فإنه قال لهم نجيء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضاً فقتلنا أنفسنا، ثم ذكروا أبا العباس أحمد بن محمد بن المعتصم وقالوا هذا من ولد مولانا المعتصم ولم نخرجها عنهم ونصطنعه فيعرف ذلك لنا ولم يزالوا ببغا الكبير حتى وافقهم عليه فبايعوه جميعاً، وهو أول خليفة من بني العباس لم يكن أبوه